

## استراتيجية نهوض جديدة

سعد الله مرعاني\*

يزداد، بين الدول العربية والشرق أوسطية والأفريقية، عدد الدول «الفاشلة». يزداد أيضاً عدد الدول المرشحة لأن تصبح كذلك في وقت لم يعد بعيداً. و«الفشل»، بالنسبة إلى الدول، يعني العجز عن بناء أليات حكم وسلطة وتنمية ووحدة وطنية... بشكل راسخ ومديد، وفي منح سلمي من التعاون والتبادل والتداول. ويكون من شأن ذلك العجز عن الحفاظ على سيادة البلد المعني وعلى وحدة أراضيه. كما يكون من شأنه أيضاً عدم القدرة على جبهه المخاطر وعدم امتلاك القدرة الدفاعية اللازمة لذلك.

«الفشل» المشار إليه هنا، هو بالدرجة الأولى ثمرة قرون أو عقود من السيطرة الاستعمارية. وهي سيطرة تميزت بنهب ثروات البلدان التي رزحت تحت نيرها، وبتشويه تطورها الطبيعي، وبإضعاف وحدة أبنائها وفق مبدأ «فرق تسد». لكن لهذه السيطرة التي انتهت، رسمياً أو سياسياً، في معظم البلدان في أواسط القرن الماضي، أشكالاً من الاستمرارية عبر منظومة التبعية التي استمرت اقتصادياً لتعود فتطل برأسها سياسياً، بصيغ جديدة: فرض الائتلاف بالأحلاف والمنظومات الأمنية. تعزيز استجداء الحماليات عبر إثارة المخاوف والنزاعات. استخدام المؤسسات الدولية كستار لفرض إرادة الأقوى... ولهذا الغرض، فقد عرف العالم أشكالاً جديدة من وسائل فرض التبعية والهيمنة: بدءاً من زرع القواعد العسكرية على امتداد العالم، إلى المنظومات التجارية القارية والدولية، إلى استخدام منجزات العلم والتكنولوجيا في حقول الاتصال والتواصل، إلى التجسس والمراقبة والمتابعة، إلى الترويج لأنماط الحياة والاستهلاك ومحاولة فرضها بالغزو المعنوي أو حتى المادي.

لقد أملى ذلك، على البلدان التي خضعت للاحتلال لفترات مديدة (المؤرخ والمنظر برنار لويس يعتبر ذلك نعمة وشرطاً للتطور!)، تشوهاً وقصوراً بالبغي الخطورة. بالدرجة الأولى، فإن هذه الدول مُنعت من أن تطوّر قواها الاقتصادية المنتجة بشكل طبيعي. وهي حرمت، بسبب ذلك، من توليد الأليات وأنظمة الحكم المناسبة على غرار ما حصل في بلدان المتروبول الاستعمارية. وتداعت عن هذا التشوه اختلالات في جميع الحقول، وإن كان وقعها وتأثيرها يختلفان في مكان إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، وليس بعيداً، دائماً، من تأثير الدول الكبرى ومن مصالحتهم احتكاراتها وصيغها الجديدة للنهب والسيطرة.

القوى التي رفعت شعارات التحرر من التبعية والهيمنة، لم تصب، بدورها، النجاح المطلوب، هذا إذا لم نقل إنها فشلت إلى حد كبير. نعني بذلك، خصوصاً، القوى التي رفعت شعارات قومية أو اشتراكية أو دينية. وتقدم الوقائع والأرقام تباينات هائلة على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعلمي بين الدول المتقدمة والدول النامية، وخصوصاً منها الدول «الفاشلة». كذلك على مستوى الاستقرار والأمن وحقوق الإنسان. هذا فضلاً عن النمو المقبول أو شبه المقبول، وما يتصل بذلك من خدمات وتقديمات عامة وخاصة. كذلك على مستوى التصرف بالثروات الوطنية والحفاظ على الحد الضروري من ممارسة السيادة.

لكن المقلق، وسط هذا المخاض والصراع والتحديات، هو ما يظهر من قصور وعجز لدى مجموعات متزايدة من الدول، عن الحفاظ

على الحد الأدنى من وحدتها، ولو الشكلية. يتصل ذلك طبعاً، وأساساً، بمشاريع التفتيت والفرز وإعادة التركيب. يتصل أيضاً بمخلفات نزاعات إثنية وعرقية وموروثة من عصور التخلف وأشكال صراعاتها واستقطاباتها. لكنه يشير أيضاً إلى قصور ذاتي إذا ما تمت محاكمته من زاوية ما رُفِع من شعارات، وما اخْتَبَر من تجارب، وما فُرض من أليات تقوم، أساساً، على التسلط والاستبداد في الداخل، وعلى التبعية والائتلاف للخارج. إن بلداناً عربية عديدة تواجه اليوم مشكلة «الفشل»: اليمن الذي لم يحافظ على وحدته وعلى توحيده، ولم يُقم سلطة مركزية تدير شؤون البلاد وفق مستلزمات تماسكها وأمنها ووحدتها وتنميتها وتطورها الاجتماعي والسياسي. العراق الذي كابد ديكتاتوريات عدة، كما اختبر الأخطر: وهو حالة الغزو والاحتلال وكل ما رافقها من بشاعات وما أعقبها من انقسات وخسائر وتهديدات تطاول، أول ما تطاول، وحدة هذا البلد الذي يخترن باطنه ثروات استيطورية ويختر تاريخه بكنوز تعود إلى بدايات الحضارات الأولى وماذا نقول عن السودان والصومال وليبيا... بل ماذا نقول عما يتهدد لبنان ومصر وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية. وماذا نقول عن شعب فلسطين وكنبته المتمادية، كما لم يحصل في كل التاريخ، على أيدي الصهاينة وداعميهم؟!

الاكتفاء بإيراد ما ذكرنا من الدول لا يعني أن سواها بالف خير! يحتم كل ذلك مراجعة الشعارات والبرامج. إنه يحتم، في المقام الأول، اشتقاق استراتيجية تغيير جديدة تقوم على التزام صارم بعنوانين: السيادة والتحرير والاستقلال الوطني والتنمية الشاملة. كذلك على التزام مماثل بمسألة الحقوق والحريات الفردية والعامّة. أما العنصر الثالث فهو الكفاح من أجل عدالة اجتماعية تنحو باستمرار باتجاه توفير تكافؤ الفرص، وكذلك تأمين الحاجات الأساسية في حقول: التعليم والصحة والسكن والعمل والأمن...

بتجه البعض، الآن، إلى اقتراح صيغ جغرافية يغلب عليها الموقت أو الانفعال بالسياسات الأنسية، لا بالمصالح العامة والحاجات الاستراتيجية. إن تشابه مستوى التخلف في عدد كبير من البلدان يستدعي، في الحقيقة، اعتماد توجهات ذات طابع أممي بالمعنى التقدمي الذي كان يرافق هذه الكلمة في مراحل الكفاح الشامل ضد النهب والاستغلال والغزو.

تمسّ الحاجة، على المستوى العربي، اليوم، لإطلاق ورشة نقاش شاملة بشأن مشروع النهوض المخفرض وقواه ومداه وبرامجه وشركائه على امتداد المنطقة والعالم. لقد كشفت الانتفاضات الشبابية - الشعبية العربية، ليس فقط الحاجة إلى مثل هذا المشروع، بل الإمكانات الكبيرة المتوافرة لارتداد مراحله ومحطاته. وبقدر متفاوت في الاتساع والأهمية والاستجابة، تحركت الانتفاضات، من المحيط إلى الخليج، لقد برز في مجرى ذلك أن مقولات الوحدة العربية والعروبة والقومية ليست مقولات مفتعلة، وإن جرى التعبير عنها، غالباً، بشكل قاصر أو انتهزي. هذا فضلاً عن أن في تاريخنا القديم والراهن إنجازات لا شك فيها.

تزداد الحاجة إلى مثل هذه الاستراتيجية للرد على خيبات المشاريع السابقة، وعلى مخاطر التفتيت والتشرذم، وللمواجهة «الفشل»، ولاستحقاق مكان كريم تحت الشمس!

\* كاتب وسياسي لبناني

أسعد ابو خليك\*

إن انتشار محطات الـ«كيبيل» في الثمانينيات من القرن الماضي أوجد حاجة ماسّة لسدّ الفراغ البرامجي في المحطات المتعدّدة والمتنوّعة في أميركا في فترة البثّ الليلي الطويل. لا يمكن إنتاج برامج تلفزيونيّة جديدة لما بعد مُنتصف الليل حيث يقلّ عدد المشاهدين والمشاهدات، وحيث يكون الساهرون والساهارات يعانون إما من وطأة الخمر أو المخدّرات أو برم الأرق. ساعات طويلة من البثّ ولا ميزانيات لملء الفراغ. طلعت الرأسماليّة الأميركيّة بنموذج جديد من البرامج «إنفوميرشل» (والكلمة مزيج من كلمتين: المعلومة والإعلان، أي المعلومة المعلنة من قبل جهة تجاريّة) بعد عام 1984، عندما أزلت هيئة الاتصالات الفدراليّة قيوداً كانت موضوعة على البثّ الدعائي عبر التلفزيون (أو «المرناة» على قول عبدالله العلايلي). تفجّرت ظاهرة ما يُسمّى تقنياً بـ«تلفزيون التجاوب المباشر»، والمصطلح يعود لأن هيكل البرنامج يختم بوضع رقم هاتف في أسفل الشاشة كي يتصل المشاهد برقم تجاري (مجاناً) من أجل أن يدفع ثمن السلعة المعلنة. وترواح مدة البرنامج بين الدقائق المعدودة وبين الساعة، ويسعى إلى حث المشاهد على الاتصال من أجل أن ينفق ماله ليلاً. وقد انتشرت الظاهرة أيضاً في لبنان والدول العربيّة، حيث يسود المشعوذون والسحرة ويعرضون بضاعة لا رقابة طبية أو علميّة عليها. واحد من هؤلاء يرى في نفسه خليفة للعبقري ابن سينا، ويبيع «شامبو» يصلح لعلاج الصلع والسمنة والتكلس وأوجاع المفاصل في أن واحد (لكن هناك رقابة على مضمون البرامج في أميركا، أما في لبنان، فتكفي الشراكة مع مُنتفد أو زوجة مُنتفد من عشاق أعمال الخير (بالمناسبة، هل لا يزال رامي مخلوف مُنتفداً لأعمال الخير؟).

لكن في الإعلام هناك فارق كبير. أو يُفترض. بين البرنامج السياسي وبرامج «تلفزيون التجاوب المباشر»: الأوّل مُمول من قبل المحطة، ولا يقبل تمويلاً خارجياً بعكس الـ«إنفوميرشيل» التي تكون ممولة بالكامل من قبل شركة أو فرد تدفع مقابل استخدام دقائق البثّ التلفزيوني. ماذا تقول في برنامج «كلام (بعض) الناس» مثلاً؟ هل هو يدخل في صنف البرامج السياسي أو الـ«إنفوميرشيل»؟ للجواب عن السؤال، يمكن العودة إلى الحلقة التي استضاف فيها غانم «صديقه» إلياس المرّ.

غاب إلياس المرّ عن السمع منذ انفضاح أمره في وثائق «ويكيليكس». لم يحصل مع أي رجل سياسة ما حصل معه. تربّى في كنف ثري لبناني اتقن فن التلقّب، وانتقل من دور العزّاب للمرحلة الإسرائيليّة إلى دور العزّاب للمرحلة السوريّة برشاقة ما بعدها رشاقة. رجل يغدق دفع الأموال من أجل الحصول على المناصب والنفوذ. طبيب لرستم غزالة في بيروت يروي كيف كان غزّالة يتلذذ في إجمار المرّ على الانتظار على قارعة الطريق أمام منزله في الرملة البيضاء في الصباح الباكر. حقّق المرّ ما أراد، وازدادت حظوته بعد أن وصل عمّ ابنه إلياس (العماد اميل لحود) إلى سدة الرئاسّة، فحقّق له حلمه. إلياس، التحق بإيلي حبيقة، لأزمه كائلاً في أيام «عرّ» الأخير الميليشاوي، إلى أن وقعت الواقعة وانقلب جعجع على حبيقة، كاد المرّ أن يقع شهيداً لقضيّة والده في شراء المناصب. أوردت الصحافة أخباراً عن اتصال من المرّ، الأب، بالجنرال عون آنذاك، واستجده أن يتخلّل كي ينقذ ابنه من موت محتم. أنقذ عون للمرّ لابنه.

ويعاني إلياس المرّ من عوارض أولاد الأثرياء. عادة تلجأ الحاشية كما الأهل إلى اقناع الابن البكر بأنه خلاصة العبقريّة والكفاءة. لكن المرّ الأب، يمتاز عن سياسيي لبنان باستعداده للإنفاق الغزير (تعلم رفيق الحريري مهنة تمويل الارتفاق السياسي والإعلامي منه) على إعلامي لبنان من أجل الحصول على تغطية تيجيلية. لا تجد من قال كلمة سلبية عن ميشال المرّ في الإعلام اللبناني، ربما خارج صفحات هذه الجريدة. وكان المرّ الابن. عليك أن تصدّق - رئيساً لتحرير جريدة منذ سنواته العشرين، مع أن اللغة العربيّة تعصى عليه وهو شارف على سنّ الخمسين.

تستطيع أن تقول عن إميل لحود إنه كان من القلائل الذين لم يقهوا أسرى لرشى رفيق الحريري، وأنه كان رئيس الجمهوريّة الوحيد الذي رفض تلقّي الرشى التقليديّة التي تصل إلى الرؤساء الثلاثة بمجرد وصولهم إلى مواقعهم من سلالات الخط، وأنه الرئيس

## «تلفزيون التجاوب المباشر»



اللبناني الوحيد الذي كان ولا يزال معادياً للصهيونيّة ولاحتيال الإسرائيلي (مع أن هوسه بـ«توطين الفلسطينيين»، كما ورد في كتاب كريم بقرادوني، «صدمة وسمود» يؤدّي به إلى اعتناق فكر بشير الجميل في رغبته. ذات السمة الطائفية. بطرد الفلسطينيين من لبنان) لكن لا تغفّر له أبداً تعيينه لصهره إلياس المرّ في وزارات نافذة في الدولة.

لا همّ، اتباع له الوالد مجموعة من الإعلاميين المتفزعين لتظهير صورة الابن. وتدرّب على الكلام البطيء من أجل أن يوهم المستمع أنه على وشك أن يقول كلاماً خطيراً ومهماً. لا يذكر اللبنانيين من سنوات المرّ في وزارة الداخلية والدفاع إلا حادثتين: الأولى عندما تصدّى ببطولة باهرة لخطر عبدة الشيطان. وهو كافحهم بقوة فيما كان لبنان يروح تحت احتلال العدو الإسرائيلي. والثانية عندما ظهر في بداية حرب تموز وأعلن أن الجيش اللبناني سيعلّم إسرائيل درساً لن تنساه، ليعود ويختفي طيلة أيام الحرب.

ثرثر المرّ كثيراً في أحاديثه في «ويكيليكس» وفي «الحقيقة لكس». في «ويكيليكس» أظهر المرّ نفسه طائفاً يكنّ عداً لمعظم أبناء وبنات الطوائف الإسلاميّة. أراد أن يبهر الأميركي، فدمر صورته إلى الأبد (طبعاً، في الحياة السياسيّة اللبنانيّة، لا شيء محسوماً، مثلما زار وفد من حزب الله وليد جنبلاط وقتله على وجنتيه بعد دوره الخبيث والمتامر في حرب تموز، تستطيع أن ترى وقدأ من حزب الله وهو يزور المرّ ويقبله على وجنتيه). أما في «حقيقة لكس»، فقد ظهر كما هو: صبي ثري يزهو